أبو أديب

بقلم: محمد سعيد المولوي
سورية

كان أبو أديب رجلاً في الستين من عمره، متين الجسم، قوي العضلات، منتصب القامة أصلع الرأس، معقوف الشاربين أبيضهما، رسم الزمن على وجهه أخاديد وتغضنات، عيناه عميقتان نافذتان كأنهما عينا ذئب، يرتدي شروالاً (١) رمادياً عريضاً وقميصاً داكن اللون، فوقه صدرية مفتوحة الأزرار يعلوها رداء عتيق مهترئ الأكمام، يدل على أنه مضى على اقتنائه زمن طويل، وينتعل في رجليه حذاء فقد لونه وتكسر حائطه.

وكان على كبر سنه رشيق الحركة، سريع السير، نشيطاً، إذا نظر إليه أحدهم لم يشك أنه أمام شاب يتفجر قوة، وكان إذا سئل عن سر نشاطه يقول: إن من يحفظ جسمه عن المعاصي في شبابه يحفظه الله له في شيخوخته.

وكان قليل الكلام، لا يتكلم إلا عن ضرورة، يكره المزاح، ويحرص على الجد في تصرفاته وحركاته وكلامه، فكأنه رجل مهموم قد أمضه همه، أو مفكر كثير التفكير، وكان طيب القلب طلق المحيا يحس الإنسان أمامه بالراحة والطمأنينة ممزوجين بالاحترام والتقدير، لكن خصلة واحدة كان يخافها منه أصدقاؤه وجيرانه وهي شدة غضبه! فهو لا يغضب بسرعة، ولكنه إذا غضب كان كالنار المحرقة، أو البركان المتفجر، لا يخاف شيئاً ولا يحسب لأمر حساباً.

وكان من عادة أبي أديب أن يصلي الصبح، ويمكث في المسجد الا دكانه يذكر الله حتى يزوغ الش يتوجه إلى دكانه في حي القي دمشق، فيفتح أبوابه، ويسد كرسياً قديماً خشبياً فيجعله حي تسقط أشعة الشمس، ويض أمامه موقداً خشبياً قد علاه إبريق شاي قديم مجهول اللون وتاريخ الولادة. ثم يجلس على كرسيه، ويوقد النار بقطع الأخشاب ونشارتها حتى يصبح الشاي جاهزاً، فإذا مر به من يعرفه عزم عليه أن يشرب الشاي معه، فإذا انتهى من شرب الشاي قام إلى عمله.

كان أبو أديب يعمل بالنجارة، ولم يكن يمارس نوعاً معيناً، فكل ما يعرض له أو عليه يضع يده فيه وينجزه. لذلك كان الناس يترددون على دكانه لإصلاح ما فسد من باب أو نافذة أو كرسي، فإذا وجد وقتاً فارغاً صنع بعض الكراسي الخشبية الصغيرة وعرضها للبيع. وإذا حان وقت الظهر مضى إلى المسجد فصلى وجلس يذكر الله، أو يقرأ القرآن زمناً، ثم عاد إلى دكانه. فإذا قرب وقت العصر أغلق دكانه ومضى إلى المسجد الأموي، فصلى العصر والتحق بإحدى حلق العلم يستمع ويستفيد.

مضت حياة أبي أديب منذ يفاعته بشكل رتيب لا يتغير فيها شيء. لقد كانت له وهو شاب آمال يرغب في تحقيقها، لكنه لم يستطع لأنه التحق بالثورة السورية الكبرى يقاتل الفرنسيين الذين احتلوا سورية عام ١٩٢٠. وحين انتهت الثورة اضطر أن يختفي فترة طويلة من الزمن حتى اطمأن أن الفرنسيين لن يتعرضوا له. وعاد إلى دكان ها، وعمل فيها بالنجارة. صحيح إن محدوداً ، ولكنه كان قانعاً به، ومع مرور الأيام استطاع أبو أديب أن يكسب ثقة جيرانه وأهل الحي، وكانوا يلجؤون إليه إن دب بينهم خلاف أو جابهتهم مشكلة.

أحس أبو أديب يوماً بالتعب، فترك العمل، وجلس على كرسيه تحت أشعة الشمس، فغلبه النوم، وفاتته صلاة الظهر مع الجماعة. وحين أفاق واتجه إلى المسجد رأى المصلين قد وقفوا خارج المسجد حلقاً

يتحدثون ويتناقشون، وأدرك أبو أديب بفطرته أن هناك أمراً طارئاً قد جمعهم وتقدم من إحدى الحلقات وألقى السلام، فسمع أحدهم يسب ويشتم.

فقال: خير إن شاء الله ما بالكم؟.

قال أبو موفق: ألم تر أولاد الكلب ما فعلوا!!

قال أبو أديب: ومن هم أولاد الكلب هؤلاء؟

قال أبو موفق: هؤلاء العسكر الفرنسيون!!!

قال أبو أديب: خير، هل هناك شيء جديد؟

قال أبو موفق مستغرباً: عجيب كأنك لم تكن موجوداً ولم تر ما حصل؟!!

قال أبو أديب: حقيقة أنا لم أكن موجوداً فقد غلب علي النوم وفاتتني صلاة الجماعة ولم أر ما حصل، خبروني ماذا هنالك؟

قال أبو سعيد: دخلنا يا سيدي إلى المسجد لنصلي ووقفنا نتوضأ من البحرة الكبيرة وقد تركنا بعض ملابسنا على الحصير في صحن الجامع وراءنا، وفجأة دخل صحن الجامع خمسة جنود فرنسيون فلم نعرهم اهتماماً وتقدموا ببطء يتفحصون المكان حتى وصلوا إلى البحرة الكبيرة فرأوا السمك فيها فأعجبهم منظره وحاولوا الإمساك ببعضه، وحسن لهم اللعب بالماء فراحوا يرش بعضهم بعضاً ,وأصاب الماء أبا مصطفى، وهو يتوضأ فأنب الجندي، فإذا هو يعمد إلى عمامة أبي مصطفى التي كانت على رأسه فيرميها في الماء ولم يكتف بذلك بل راح يرشه بالماء، وتجرأ الجنود الآخرون فرشوا بقية المصلين ورموا طرابيشهم وملابسهم في البحرة.

قال أبو أديب محتداً: وماذا صنعتم أنتم؟

قال أبو موفق : وماذا نستطيع أن نصنع؟ فهم مسلحون وأمثال هؤلاء لا يتورعون عن القتل وإطلاق النار. والذي يموت منا «يذهب دمه هدراً»!!

أضاف أبو مصطفى: الله يخرب بيتهم! ما كفاهم ما صنعوا؟ فإننا عندما دخلنا المسجد للصلاة أخذوا نعالنا ورموها في البحرة، وراحوا يغنون ويصفرون فلم ندر كيف صلينا.

قال أبو أديب: والله صحيح لقد رأيتهم قرب الدكان وأنا قادم إلى هنا وهم يغنون ويعربدون في الطريق.

قال أبو موفق: ما رأيك فيما حصل يا أبا أديب؟!

قال أبو أديب: كلكم تعلمون أننا ابتلينا بهذا

وقد قاومنا هذا الاستعمار، وقاتلنا واستشهد، منا من استشهد وأصيب من أصيب، واضطررنا في النهاية لإيقاف الجهاد المسلح لقلة الإمكانات المادية، فالسلاح شبه معدوم والتمويل قليل، وأنا لا أعتقد أننا انهزمنا لأننا لا نزال نتصدى لهؤلاء الدخلاء بالمظاهرات والحجارة والإضرابات، ونفتح صدورنا لرصاصهم غير خائفين. لكنهم قاتلهم الله! وقد أدركوا قلة وسائل جهادنا ونضالنا أخذهم الصلف والغرور فجعلهم يتمادون في غيّهم وظلمهم، وهؤلاء الجنود صورة مصغرة عن المستعمر الفرنسي الكافر، ويجب علينا أن نلقن هؤلاء الجنود درساً لا ينسونه، كما لقنّا إخوانهم وقادتهم درساً لن ينسوه في الثورة السورية الكبرى، وسيعلم هؤلاء أن هذا الشعب لا يقبل الضيم أو الظلم، وسننظر إلى غدٍ فإن عادوا كان لنا معهم شأن آخر، وإن لم يعودوا فلا ردهم الله! ويكون الله قد كفانا شرهم.

وتفرق الجميع ودخل أبو أديب المسجد فصلى، ولكنه كان مشوش التفكير، فما عقل من صلاته إلا القليل، فقد كان فكره يعمل على إيجاد طريقة لتأديب هؤلاء الجنود. وخرج إلى صحن المسجد يتفحصه ويدرسه. صحن المسجد واسعاً فسيحاً له مدخل ريض وتتوضع على جوانبه أحواض ترابية زرعت بأشجار الياسمين والورد والنارنج، وكانت عرائش الياسمين تظلل ساحة الصحن، وتنشر رائحتها الجميلة فتعطر الهواء وتنعش الحاضرين، وعلى الطرف الأيسر من الصحن كان هناك إيوانان كبيران مرتفعان فرشا بعض السجاد القديم يصلي عليه لون أو يجلسون للتمتع بمنظر الصحن رة وشجرات الياسمين وروائحها، الماء من نافورة وسط البحرة المستقرة نصف صحن الجامع تتلألأ منها الامواه المتدفقة من فتحات جانبية، فيصطدم بأشعة الشمس فيزداد الماء صفاء وروعة.

وراحت عينا أبي أديب تدور في صحن الجامع بينما كان فكره يخطط لما سيفعله، حتى إذا اطمأن لإمكانية تنفيذ ما فكر فيه عاد إلى دكانه.

كان أبو أديب في اليوم الثاني هادئاً كعادته، وحين قرب موعد أذان الظهر ترك دكانه وذهب إلى المسجد فتوضأ وجلس على طرف الإيوان يرقب صحن الجامع والمصلين وهم يتوضؤون. وحين نادى أبو أديب مؤذن المسجد يسأله كم بقي من الوقت للأذان لمحت عيناه الجنود الفرنسيين وهم يدخلون من باب المسجد وضحكاتهم مرتفعة.. وصاح أحد المصلين: يا أبا أديب وصلوا.. وقال أبو أديب: يا شباب لا تتعرضوا لهم، اتركوهم يفعلوا ما يشاؤون.. فقط هذه المرة.

وانتشر الجنود على أطراف البحرة الكبيرة،

ومدّ أحدهم يده إلى الماء يريد أن يمسك بسمكة مرت وحين فشل في ذلك أخرج كفه من الماء ورش به أحد المتوضئين وهو يقهقه، وانسحب الرجل وكان عجوزاً وهو يقول: لعنة الله عليك، وتجرأ الجنود الآخرون، وراحوا يرشون الماء على المصلين ويضحكون من منظرهم وهم يدفعون الماء عن أنفسهم بأيديهم.

كان منظر أبي أديب عجيباً، فقد احمرت عيناه، وتصلب وجهه، وتملكه الغضب الشديد فانتصب واقفاً، ولكنه ضبط نفسه وقال للمصلين: الرجل هو الذي يضحك في الأخير، وانسحب المصلون بينما تابع الجنود لعبهم بالماء.

خرج أبو أديب من المسجد بعد الصلاة وكان الجنود قد غادروه ومضى إلى دكانه فوضع كرسيه تحت الشمس وجلس يفكر.

عادت بأبي أديب الذكريات إلى أيام الثورة السورية حين هجر داره، وخلف أولاده الصغار مع أمهم عرضة للخوف والجوع والأذى والتحق بالثوار، لم يكن يملك آنذاك سوى ثمن البندقية. وخرج لا يريد إلا الشهادة في سبيل الله أو تحرير الوطن، كانت الدنيا كلها آنذاك لا تساوي عنده سوى تحقيق أمنية التحرير والاستقلال ومن أجل ذلك كان مستعداً للتضحية بنفسه وأهله.

وسأل أبو أديب نفسه: هل يحق لي اليوم أن أبخل بنفسي، وكيف أقبل هذا الوضع. إن المسلم عزيز وقد خصه الله بالعزة، فكيف فقدنا العزة وأصبح المستعمرون الكفرة يتجولون في ديارنا ويتحكمون بنا كما يشاؤون. لا ريب أن السر يكمن في حبنا للدنيا وكرهنا للموت. فمن أحب الموت وهبت له الحياة.. وقفزت إلى ذهنه صورته وهو متحصن وراء شجرة في غوطة دمشق يطلق النار على الجنود الفرنسيين، وكيف مرت رصاصة من جانب رأسه فاقتطعت جزءاً من أذنه لتشهد له بالبطولة والتضحية، فهل فقد هذه الرجولة؟! وخطر له أن يغدو في اليوم الثاني إلى المسجد ومسدسه معه وأن يطلق الرصاص على هؤلاء الجنود ويرديهم قتلى..

وليكن ما يكون.. فهل هناك أكثر من الموت وهو قد لقيه أكثر من مرة فما خاف منه.

لكن صوتاً انبعث من داخله يسأله: هل تسمح لنفسك بالقتل في المسجد، وهل تروع المسلمين بفعلك؟ ثم ماذا تقدم لوطنك بهذا العمل الفردي سوى أن وطنك سيخسرك دون أن تفيده بشيء؟ فالعمل الفردي في كثير من الأحيان لا يأتي بفائدة، والله تعالى يقول: «**سنشد عضدك بأخيك**». ولو أنك ثرت وحيداً إبان الثورة السورية هل كانت ثورتك تفيد شيئاً وهل كانت ستستغرق أكثر من بضعة ساعات ثم تنتهي بموتك؟! ولكنك حين ثرت مع إخوانك استطعتم بقدراتكم البسيطة وأسلحتكم العتيقة أن تقاتلوا فرنسا مدة سنتين، والشعب يقدم لكم المعونة والدعم. إن حياة المسلم رخيصة في سبيل عقيدته، والشهادة في سبيل الله من أعظم أمانيه، ولكن حياته أيضاً غالية لأنه بهذه الحياة يضمن لنفسه السعادة في الآخرة والدنيا، ولأنه بهذه الحياة يبني الحياة الإنسانية وينير لها مشاعل الوجود الحر الكريم، وبحياة أجدادنا الأوائل خرجت البشرية من الجهالة إلى العلم، ومن العبودية إلى الحرية، ومن الذلة إلى الكرامة، ومن الظلام إلى النور.

إن العمل الذي يخص المجتمع يجب أن يشارك فيه قسم من المجتمع حتى ينجح، والأعمال الفردية قد تضرب مثالاً للتضحية، وتقدم نموذجاً للبطولة، ولكنها على الغالب لا تحل أصل المشكلة إنما يحلها تضافر الجهود والقوى مع بعضها بعضاً فإن يد الله مع الجماعة.

ووصل أبو أديب إلى قرار.. فهو لن يصنع عملاً فردياً يؤدي إلى الضياع، ولكنه سيستعين بأبناء الحي كي يؤدب هؤلاء الجنود فلا يعودون إلى فعلهم، وخطرت له فكرة: لماذا لا يعاقب هؤلاء الجنود بالعمل نفسه الذي يصنعونه فيكون الجزاء من جنس العمل ويكون أبلغ لهم وأشفى لنفوس المصلين.

ونظر أهل الحي إلى أبي أديب وقد خرج من دكانه يحمل سلماً طويلاً وبيده منشار حاد يتجه إلى شجرة الصفصاف الكبيرة التي تقع في زاوية الشارع إلى جانب المقهى والتي يستظل بها رواده.

وحسبوا أنه سيقطع الشجرة فأسرع إليه بعضهم وقالوا: لا يا أبا أديب، هذه الشجرة عمرها أكثر من أربعين سنة، فماذا فعلت لك حتى تقطعها..؟؟

ضحك أبو أديب وقال: اطمئنوا أنا لن أقطع الشجرة لكني أحتاج إلى بعض قضبانها ومن أجلكم..

قال أبو سعيد: لا يا أبا أديب..!! ماذا صنعنا لك حتى تهيىء لنا القضبان؟!

ضحك أبو أديب مرة أخرى وقال: هي من أجل خدمتكم لا من أجل أذاكم.

وقطع أبو أديب بعض قضبان الشجرة ومضى بها إلى دكانه فشذبها وقومها، وجعل منها عصياً مناسبة وجمعها إلى بعضها ثم حملها إلى المسجد فجعلها في حوض الياسمين الكبير بجانب الشجرة فبدت أشجاراً صغيرة لا تلفت الانتباه.

وحين انتهت صلاة العصر طلب أبو أديب من خمسة من أصحابه المصلين أن يبقوا في صحن المسجد ولا يخرجوا.. ولما انفرد أبو

أديب بهم قال: لقد شاهدتم ما فعله هؤلاء الجنود الفرنسيون بالمصلين، ويعلم الله أني فكرت في إطلاق الرصاص عليهم وقتلهم جميعاً لولا أني رأيت للمسجد حرمة وأنه لا فائدة تتحقق من ذلك، فرأيت أن نؤدب هؤلاء الأوغاد العابثين حتى لا يعودوا إلى مثل عملهم في الاستخفاف بالمسلمين لأن المسلم عزيز، والله لا يرضى أن يذل هؤلاء الجنود عباده المصلين، وقد خطر لي أن يكون جزاؤهم من جنس عملهم ثم مضى يشرح لهم الخطة التي وضعها والتي سينفذها بمساعدتهم على أولئك الجنود.

وعاد أبو أديب إلى دكانه، وجلس يفكر في ترتيبات الخطة التي وضعها وخطر له أن ما سيصنعه يحتاج لجسم قوي.. وثار في صدره سؤال: ترى هل يستطيع ذلك؟ وقبل أن يفكر في الجواب عادت إلى مخيلته حادثة جرت معه منذ ثلاثة أيام، فقد مر بعدد من شباب الحي وقد وقفوا أمام صخرة كبيرة من جانب الشارع تعرقل السير يحاولون رفعها من مكانها، وكان كل واحد من هؤلاء الشباب يحاول أن يرفع الصخرة فيعجز عن زحزحتها.

قال لهم أبو أديب: عن إذنكم يا شباب دعوني أجرب!!

ضحك الشباب ملء أشداقهم **وقال أحدهم:** لماذا الغلط يا حاج، نحن ثلاثة شباب ولم نستطع تحريكها وأنت تريد أن تفعل ذلك؟!

قال أبو أديب: من حقكم أن تضحكوا على رجل عجوز مثلي ولكن إذا زحزح هذا العجوز هذه الصخرة فعلى من سيكون الضحك؟؟

ورد أحدهم: علينا والله يا حاج، ولكن هذه مستحيلة!!

خلع أبو أديب رداءه وأعطاه لأحد الواقفين ثم شمر عن ساعديه، وانحنى فأحاط قسماً كبيراً من الصخرة بكفيه وساعديه ونظر في وجوه الحاضرين الذين زاد عددهم وهم يحدقون فيه ثم قال: يا الله: يا رب، يا قوي!! ونهض بجسمه بقوة فأصبح واقفاً والصخرة قبالة صدره مرفوعه عن الأرض متراً تقريباً، وصاح الواقفون: الله أكبر الله أكبر، ما شاء الله!! وتحرك أبو أديب بالصخرة إلى جانب الطريق ورمى بها.

سارع الشباب ينفضون الغبار عن ملابسه، وحمله أحدهم على كتفيه وراحوا يدورون حوله وهم يهتفون:

الله الله يا مفرج المصائب...أبو أديب يا شاب مالك شايب

ولما نزل على الأرض قالوا: والله يا عم أنت شيخ الشباب، وحقك أن تضحك علينا وأن تحكم علينا بما تشاء.

وصحا أبو أديب من ذكرياته على نفسه وهو يقول: بارك الله فيكم يا شباب ولا يهمكم شيء.

تيقن أبو أديب أن ما قرره سينجح بإذن الله، فقام إلى عمله مستبشراً منفرج الأسارير.

جاء اليوم الثاني وهو يخبئ في ثناياه ما قرره أبو أديب وأصحابه، وحين اقترب وقت أذان الظهر كان كل واحد منهم قد أخذ له مركزاً مناسباً في صحن الجامع، ولم يمض زمن طويل حين دخل الجنود إلى ساحة الجامع، وانحنى أبو أديب وأصحابه على أحذيتهم يتظاهرون بأنهم يريدون خلعها بينما راحوا يرمقون الجنود بأعينهم.

وتقدم الجنود نحو البحرة وكان أحد المصلين يتوضأ فلما رآهم تراجع إلى الوراء ولم يتم وضوءه، وضحك الجنود من تراجعه، وأخرج كل واحد منهم شبكة صغيرة من جيبه ثم انحنوا فوق الماء يحاولون الإمساك بالسمك، وبإشارة بسيطة من أبي أديب وبخفة النمر كان الرجال قد أصبحوا خلف الجنود وبسرعة وضع أبو أديب يده الأولى على قفا رقبة الجندي أمامه ويده الأخرى بين رجليه ثم قلبه داخل البحرة، وحذا الرجال الآخرون حذوه ولحظة واحدة أصبح الجنود الخمسة في البحرة رؤوسهم إلى أسفل وأرجلهم إلى أعلى والماء يغمرهم، وارتد أبو أديب وأصحابه بسرعة إلى العصي فأمسك كل واحد منهم عصا، ثم عادوا إلى البحرة فأحاطوا بها.

أخذ الجنود الفرنسيون بالمفاجأة، فراحوا يخبطون الماء بأيديهم وأرجلهم يحاولون الوقوف وقد غشيهم الماء وبللهم، ووقف أبو أديب ورفاقه يضحكون من منظر الجنود والمياه تسيل على وجوههم، وشعورهم منسدلة على أعينهم، وملابسهم متهدلة، وحين حاول أحدهم أن يتقدم نحو طرف البحرة يريد الخروج كان نصيبه ضربة من العصا التي يمسك بها أبو صياح.. ونادى أبو أديب مؤذن المسجد أن يحضر السطل الذي يشفط به صحن الجامع فجاء به، وملأه أبو أديب بالماء ثم رماه على الجنود فزادهم بللاً على بلل. وتجمع الجنود في منتصف البحرة، لأنهم كلما حاولوا الاقتراب من أطرافها كان نصيبهم ضربة من عصا أحد المصلين.

وهرع المصلون وأهل الحي نحو المسجد ينظرون إلى الجنود ويضحكون، وتكاثر الناس حتى كاد يمتلئ صحن المسجد، وزاد هلع الجند وخوفهم فازدادوا اقتراباً من بعضهم بعضاً بينما تطوع بعض المصلين بإلقاء مزيد من الماء عليهم.

ظلت حفلة الغسيل هذه قرابة ربع ساعة حتى انخلعت قلوب الجنود من الرعب، وضم أحد الجنود يديه متوسلاً إلى أبي أديب وحذا رفاقه حذوه فأشار إليهم بعصاه أن يخرجوا من البحرة، وصاح بالحاضرين أن يفسحوا لهم طريقاً.. وكان منظر الجند في غاية الهزء، فقد كانت المياه تسيل من وجوههم وملابسهم وتنسحب وراءهم وهم يجرون نحو الباب، والمصلون يصفعون أقفيتهم بأيديهم ويضحكون منهم، بينما كانت عصا أبي أديب تلاحق أرجلهم، وما أن وصل الجنود باب المسجد حتى انطلقوا يركضون بكل قوتهم ناجين بأنفسهم وضحكات سكان الحي وصيحاتهم تلاحقهم.

رفع أبو أديب رأسه نحو السماء فوقع بصره على المئذنة تسمو إلى أعلى، فأحس بالعزة والفخار بينما كان المؤذن يصيح: الله أكبر.

---

(١) الشروال: هو السراويل بلغة أهل الشام.